مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد التاسع عشر
2002

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1370 من وفاة الرسول ﷺ 2002 من ميلاد المسيح عليه السلام

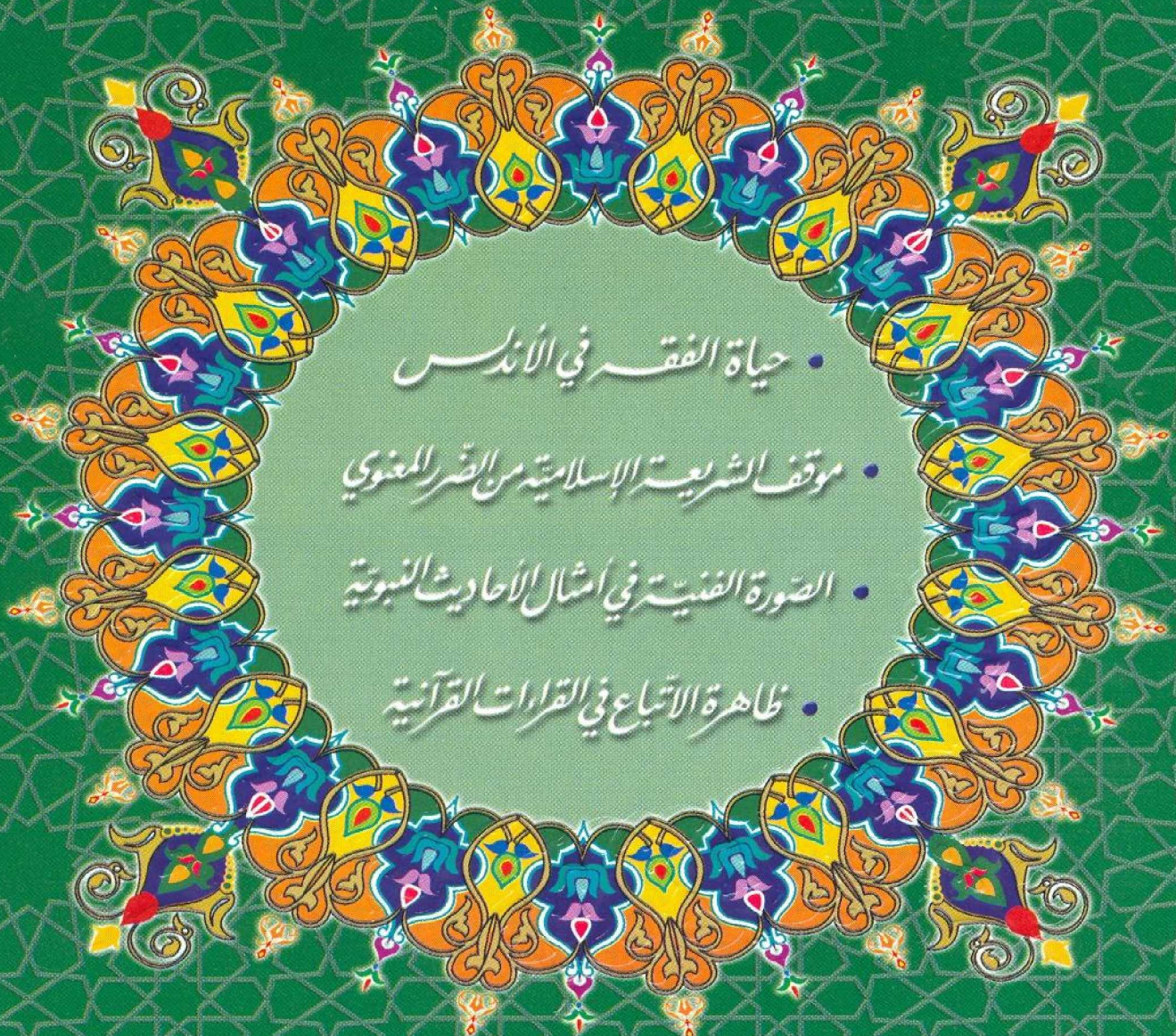

د. عبد الله محمد الزيات
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد بجامعة الفاتح

رأيت أن أطلق اسم الجدل على نصوص تتكون من أبيات قالها أحد اليهود معترضاً بها ـ في رأيه ـ على أفكار إسلامية فيما يتعلق بالعقيدة، ومن قصائد لشعراء مسلمين مع شرح نثري لإحدى هذه القصائد، وهذه القصائد الأخيرة مع شرح إحداها هي تفنيد ورد على مزاعم اليهودي صاحب الأبيات الأولى؛ فهي إذن نصوص دينية؛ لأنها تتعلق بأمر الدين، وينطلق فيها صاحب النص الأول من منطلق ديني، ويطلق تفسير الإشكاليات المزعومة لديه تفسيراً دينياً كما يراه الآخر في دينه.

وهي جدل، لأن صاحبها مجادل، ولأن الله سمى نقاش المسلمين لأهل الكتاب جدالاً فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[1].

(1) سورة العنكبوت، الآية: 46.

وهي أشعار يمكن أن يطلق عليها اسم الشعر التعليمي أو الفلسفي، وقيمتها ليست فنية بقدرما هي توثيقية تاريخية، وأصحابها إذا استثنينا أبا جعفر ابن خاتمة لم يكونوا من المشهورين بأنهم شعراء، بل هم فقهاء لهم تآليف في الفقه، أو متصوفة لهم مساهمات في التصوف.

وقد عرفت الكتابات في الرد على اليهود والنصارى في المشرق والمغرب، فقديماً عرف بشر بن المعتمر الذي يذكر ابن النديم أن له كتاباً بهذا العنوان[2]، وكذلك الجاحظ[3] ومن عاصره أو جاء بعده من الذين قد ألفوا في الموضوع، مثل الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي (ت246)[4]، وإمام الحرمين الجويني (ت478) وفخر الدين الرازي (ت606)[5] ونجم الدين البغدادي الطوفي وغيرهم.

كما أن الأندلس والغرب الإسلامي بصفة عامة كان لهما تميز خاص من حيثُ بُعدُهما عن قلب العالم الإسلامي، ومن حيث وقوعُهما قرب الديار المسيحية أو في عقر دار المسيحية كما يرى ساسة ومفكرو الأمم الصليبية، ولذلك كان الهجوم فيها على الإسلام والمسلمين شرساً وكان موضوع الرد على اليهود والنصارى ذا نكهة خاصة، وعرفت مؤلفات عديدة لعلماء الغرب الإسلامي في الرد عليهم مثل: الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام، وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة محمد عليه السلام للقرطبي، ومقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي القرطبي (ت582)، بل إن المدجنين (المورسكيين Los moriscos) وهم الذين عانوا من الاضطهاد الصليبي ما عانوا، استطاع البعض منهم أن ينجو بنفسه ودينه، ويحمل رايات الدفاع عن الإسلام بين قسس المسيحيين، وفي مناظرات

---

(2) الفهرست دار المعرفة بيروت، لبنان ص231.

(3) انظر شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ط2 دار المعارف 1966، ص108.

(4) له كتاب بعنوان الرد على النصارى، تحقيق إمام حنفي عبد الله، دار الآفاق العربية القاهرة.

(5) له كتاب بعنون مناظرة في الرد على النصارى، تحقيق عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي بيروت 1986.

مفتوحة أتيح له حضورها في دول أوروبية غير إسبانيا والبرتغال، ألا وهو الموريسكي أحمد بن قاسم الفقاي الحجري، صاحب كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين[6]. وهذا المدجن ليس وحيداً في هذا الموضوع، بل إن مدجنين آخرين قد سبقوه في المحاجة عن الإسلام والدفاع عنه أمام المسيحيين واليهود، مثل مدجن يجهل اسمه وتاريخ حياته على وجه التحديد، ولكنه ترك لنا كتاباً في الدفاع عن الإسلام أمام اليهود انتهى من تأليفه بمدينة وقش يوم 22 ربيع الأول عام 762هـ[7].

واليهودي صاحب النص الذي أثار الفقهاء أو العلماء المسلمين الثلاثة لم تشر إلى اسمه وأحواله المصادر، ومن خلال نص لأبي إسحاق الشاطبي نعلم أن أبيات الذمي، والرد عليها كانت جميعاً قبل عام 759 من الهجرة حيث قال الشاطبي بعد سرد أبيات الذمي ورد ابن لب وشرحه لرده ما نصه: «انتهى ما سطره سيدنا الأستاذ وقد قرأناها عليه: الأبيات والشواهد، وأنشدني الأبيات في أواخر رجب من عام تسعة وخمسين وسبعمائة، أوائل جويليه 1358»[8].

ومعروف جداً قبل هذه الفترة أنه كانت توجد مجادلات دينية أثارها أهل الكتاب من يهود ونصارى، خصوصاً الأولين الذين تمتعوا بنصيب أوفى من التسامح في الحضارة الأندلسية، وتغلغلوا فيها تغلغلاً كبيراً، وأصبحوا عروبيي اللسان، وألفوا بالعربية كثيراً[9] بل وضعوا كثيراً من أسس الحضارة العبرية الموجودة حتى الآن، انطلاقاً من اللسان العربي، وتأسيساً على الحضارة العربية.

---

(6) حول الكتاب ومؤلفه انظر: أحمد بن قاسم الفقاي الحجري، لمؤلفه عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية، الرباط 1416/1996.

(7) الكتاب ما زال مخطوطاً يملك المحقق نسخة منه.

(8) الإفادات والإنشادات ص 175.

(9) مثل الكاتبين ابن عزرا أبو هارون موسى بن يعقوب، وابن تبون يهودا بن شاؤول، انظر Diccionario autores granadinos لمؤلفيه José Ortega y Celia del Moral Molina, Universidad de Granada, 1991, PP. 107, 7, 122-3.

ولقد عرفت غرناطة في عهد طائفة بني زيري بتجمع كبير لليهود، إلى درجة أن بعض ساستهم الذي انخدع فيه المسلمون، حاول أن يقيم بهذه المدينة إمارة خاصة لليهود، وقد قامت ثورة على اليهود في هذه المدينة وكان السبب المباشر فيها هو هذا السياسي المدعو بابن النغريلة الذي لم يكتف بأطماعه السياسية، بل قال كثيراً في جدال الإسلام، وفوق هذا تَهجَّم على الإسلام والقرآن وسَخِر من المسلمين علناً، ووضع مؤلفاً في تناقض القرآن ـ حسب قوله ـ، وكان يتقلد منصب رئيس الوزارة في إمارة بني زيري، وقبل هذه الثورة كان أصحاب الأقلام من المسلمين يجادلونه بالتي هي أحسن، ويدبجون الرسائل في الرد عليه وتفنيد مزاعمه، ومن أولئك الكُتَّاب عالم الأندلس الكبير ابن حزم الظاهري الذي كتب رسالة في الرد عليه[10] كما كتب فصولاً مطولة في الرد على النصارى واليهود وتفنيد مزاعمهم، وبطلان آرائهم[11].

وقد كتب ابن حزم في الرد على النصارى قصيدته الميمية الشهيرة التي كتبها رداً على أحد المسلمين المرتدين، الذي تنصر والتجأ إلى قصر أحد الحكام النصارى، وبعث بقصيدة على لسان ملك النصارى إلى الخليفة المطيع العباسي، فأرسلت إلى الأندلس، ووجدت في قصر الخليفة الأموي المعتمد الذي وزر له ابن حزم بعض الوقت، ووقعت القصيدة في يد ابن حزم فرد عليها بقصيدته الميمية التي مطلعها:

مِنَ الْمُحْتَمِي للّه رَبُّ الْعَوَالِمِ وَدِينِ رَسُولِ اللّهِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

وقد نيفت هذه القصيدة على مائة وخمسة وثلاثين بيتاً[12].

وقد أثارت أبيات اليهودي الذمي هؤلاء الشعراء الثلاثة ليقولوا هذا الشعر،

---

(10) عنوانها «رسالة في الرد على ابن النغريلة اليهودي» وقد جاءت هذه الرسالة ضمن رسائل ابن حزم التي جمعها إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1987، 3/ 41 ـ 70.

(11) الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة خياط، بيروت، 1/ 48 ـ 217، 2/ 1 ـ 91.

(12) انظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ط3 دار الثقافة بيروت، 1973، 374 ـ 382.

ويحتمل أنها أثارت غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينتمون إلى عصر بني الأحمر بالأندلس، غير أن شعرهم في ذلك لم يصلنا، ودليلنا في احتمالية إثارة هذه الأبيات لشعر آخر لغير هؤلاء الثلاثة، هو أنها أثارت أكثر من نص نثري كما يذكر ابن لب نفسه، حين يقول: «وحملني على ذلك أني وقعت على كلام فيه لبعض المجيبين عن الأبيات الذمية. . .»[13].

وقبل هذه الأبيات حفزت أقوال ابن النغريلة الشاعر الفقيه أبا إسحاق الإلبيري ليقول قصيدته النونية الشهيرة[14]، كما بعثت ـ في العصر نفسه ـ رسالة الشعوبي ابن غرسية عديداً من الرسائل النثرية[15] للرد على مزاعم الشعوبي وتفنيدها، وكذلك أثارت قصيدة المرتد المشار إليها سابقاً، ابن حزم وغيره من شعراء الأندلس ليردوا على هذا الشاعر المرتد الذي يتكلم باسم الملك النصراني[16].

وهذه النصوص الشعرية والنثر الذي يشرح بعضاً منها لم أرها في أي مصدر، ولم أعلم حتى إشارة إليها في أي مصدر أو مرجع سوى المخطوط الذي نقوم بتحقيقها انطلاقاً منه، أو أن الشاطبي، صاحب الإفادات والإنشادات، قد سجل أبيات الذمي وردَّ أبي جعفر سعيد بن لب عليها وإشاراته إلى أدلته القرآنية على ردوده[17]، كذلك أيضاً فإن الدكتور عبد الحميد الهرامة قد وظف ما نقله الشاطبي في دارسته «القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري»[18].

---

(13) انظر نص ابن لب في تعقيبه وشرحه لأبياته المردود بها على الذمي فيما يأتي أدناه.

(14) ديوان أبي إسحاق إبراهيم بن الإلبيري تحقيق محمد رضوان الداية ط1 دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق 1411/ 1991 ص 107 ـ 112.

(15) انظر هذه الرسالة والردود عليها عند ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس 1981، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص 705 ـ 756.

(16) رد عليه أيضاً أبو بكر القفال الشاشي، وأبو الأصبغ عيسى بن موسى بن زروال الغرناطي (انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، 374.

(17) الإفادات والإنشادات، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، ط2، مؤسسة الرسالة بيروت، 1406/ 1986، ص172 ـ 175.

(18) ط1 كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا 1424/ 1996، 1/ 281، 282.

وقد نشر ديوان ابن خاتمة مرتين[19] وفي كليهما خلى من قصيدته هذه، كما أننا لم نعرف أحداً آخر نشر شيئاً من قصيدة ابن صفوان، أما أبيات ابن لب وشروحه للأبيات فقد نشرت في سياق آخر مقتطعة عن سياقها العام الذي يفيد أنها كانت واحدة من نصوص عديدة قيلت في الرد على أبيات الذمي.

وتتفق هذه النصوص التي تَرُدُّ على أبيات الذمي في أن أصحابها من أهل الفقه والزهد والتصوُّف وابن خاتمة الذي ذاعت شهرته شاعراً فإنه كان فقيهاً أيضاً. وكذلك فإن أصحاب هذه النصوص هم جميعاً ينتمون إلى عصر بني الأحمر، وهم جميعاً أيضاً من أدباء القرن الثامن الهجري، ولا بأس أن نتلبث قليلاً عند ترجمة كل منهم:

1 ـ أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان، كنيته أبو جعفر وشهرته بابن صفوان (695 ـ 763)، مالقيّ المولد والنشأة، تردد قليلاً إلى غرناطة حيث كتب فترة عن سلطانها الثاني في عصر بني الأحمر وهو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالفقيه، كما تولى الكتابة فترة في مالقة لأبي الوليد إسماعيل بن فرج الذي استقل بمالقة بعض الوقت.

كان ابن صفوان كاتباً كبيراً، بل على رأس كتاب مالقة ومشيختها[20]، وكان عالماً في الفرائض والحساب والأدب والتوثيق، وقد ترك الكتابة عن السلطان فترة واشتغل بمهنة التوثيق[21]، كما كان ذاكراً للتاريخ مشاركاً في الفلسفة والتصوف، كَلِفاً بالعلوم الإلهية كما قال ابن الخطيب[22] الذي تتلمذ لابن صفوان وطلب إجازته مع ابنه فأجازهما ابن صفوان، وكان من

---

(19) الأولى من نشر دار الحكمة بسوريا عام 1399/ 1978، والثانية من نشر دار الفكر المعاصر، ودار الفكر بسوريا، عام 1414/ 1994، وكلتا النشرتين بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية.

(20) ابن الخطيب، الإحاطة ط2، مكتبة الخانجي 1393/ 1973، 1/ 221، وقد عده ابن الخطيب في طبقة الكتاب والشعراء (انظر: الكتيبة الكامنة 158، 216).

(21) انظر الكتيبة الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1983، ص216.

(22) ابن الخطيب، الإحاطة 1/ 221.

ضمن ما أجاز فيه ابن الخطيب ديوان شعر جمعه ابن الخطيب لابن صفوان وسماه «الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة»[23]، وهكذا فإن جمع ابن الخطيب لشعره يشير إلى أنه كان شاعراً مكثراً قوي الشاعرية طويل النفس، فقد كان المجموع يحوي جملة من المُطَوَّلات، وقد لهج بالمصطلحات العلمية في بعض شعره وعبر فيه بالتورية كثيراً[24]، لكن على الرغم من ذلك فقد كان من السلاسلة والسيرورة بمكان، حتى إن بعضه كَلِفَ به القوالون والمسمعون بين يدي بعض الصوفية، مثل نونيته التي مطلعها[25]:

بَانَ الْحَمِيمُ فَمَا الْحِمَى وَالْبَانُ بِشَفَاءِ مَنْ عَنْهُ الأَحِبَّةُ بَانُوا

ومن خلال وصف ابن الخطيب لأبي جعفر بأنه مشارك في التصوف[26]، أو أن التصوف مجاله[27] ومن خلال بعض الشعر الذي ذكره له ابن الخطيب نعلم أن ابن صفوان كان متصوفاً فيلسوفاً أو زاهداً متصوفاً.

وقد كان ابن صفوان صاحب تآليف قليلة، ولكنه كان مغرماً بالتعليق على النصوص ووضع التقييدات[28]، ومن ثم جاء تعليقه شعراً على أبيات الذمي اليهودي منسجماً مع هذا الاتجاه، وكان مغرماً بالإلهيات والروحانيات ليس في نثره فقط، بل في شعره أيضاً؛ فقد عارض قصيدة ابن سينا الشهيرة التي قالها يصف النفس وعوالمها[29].

2 ـ وابن خاتمة هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة

---

(23) السابق ص228.

(24) الإحاطة 1/ 230، 231.

(25) الإحاطة 1/ 223.

(26) الإحاطة 1/ 222.

(27) أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تحقيق محمد كمال شبانة، ط اللجنة المشتركة لنشر التراث بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، المغرب 1397/ 1977، 63.

(28) الإحاطة 1/ 223.

(29) انظر: الإحاطة 1/ 229.

الأنصاري (ت770هـ)، كنيته أبو جعفر وهو من أهل مدينة المرية[30] جنوب شرق الأندلس ودخل مدينة غرناطة عدة مرات، كان من كبار أهل الأندلس في تلك الفترة وبعبارة عصره كان من خواص الأندلس كما قال ابن الخطيب، ورجل مثله يدعى إلى إعذار أميري[31] لا يخلو ـ غالباً ـ من أهمية وخصوصية اجتماعية وسياسية، لا بد أن يكون كلاهما معضداً بأهمية علمية، عبر عنها ابن الخطيب بعدة جمل فهو الشاعر الذي روى عنه الرواة الجواهر والدرر، وهو ـ بعبارة شاعر العربية المتنبي ـ ذو الأدب الذي يسهر الخلق إزاء نوادر أدبه ويختصمون، وهو الذي شهر بلدته المرية بجودة شعره، وكان أسلوبه موجزاً معجزاً، خصوصاً في غزله ودعابته، وقد كان ابن خاتمة فوق كل ذلك يمت إلى العلوم والمعارف بسبب، وكان ذا فضائل تنافس فيه من أجلها قواد مدينته ليتخذوه كاتباً لهم[32].

وابن خاتمة بالإضافة إلى كونه شاعراً معروفاً فقد كان ناثراً فناناً، ولذلك كله وصفه معاصره ابن الخطيب بأنه الحجة التي لا تجهل في الأدب، وبأن شهرته فيه تشبه شهرة سيبويه في النحو[33]، كما كان ابن خاتمة مؤرخاً وصلتنا أخبار عن مؤلف له في تاريخ مدينته مدعو بـ«مزية المرية»[34] حَفِظَت لنا نقولاً منه كُتبُ التراث الأندلسي المختلفة[35] وقد ذكر له التنبكتي مؤلفاً آخر في المنطق أو النحو[36]، وعلى الرغم من

(30) انظر: ترجمته في الإحاطة 1/ 245، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، عناية وتقديم الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب ط2 طرابلس الغرب 2000، 101.

(31) السابق 1/ 245.

(32) ابن الخطيب أوصاف الناس 69، 70.

(33) انظر: الكتيبة الكامنة 239.

(34) انظر: المقري أزهار الرياض في أخبار عياض، الصندوق المشترك لإحياء التراث الإسلامي الرباط 1398/ 1978، 1/ 23.

(35) السابق ص25.

(36) نيل الابتهاج 102.

شهرته بالشعر فقط فقد كان فقيهاً، وكذلك سمَّاه الفقيه المعاصر له صديقه الحضرمي[37]، ولقبه ابن الخطيب بالشيخ الكاتب[38].

3 ـ أما ابن لب فهو فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي المكنى بأبي سعيد (701 ـ 782)[39] كان ـ كأغلب معاصريه من علماء ذلك الزمان ـ عالماً موسوعياً، رئيساً في الفتوى، غزير العلم، قائماً على الفقه والقراءات، متضلعاً بالمسائل، عارفاً بالعربية واللغة، متمرناً في التوثيق، مبرزاً في التفسير، مشاركاً في الأصلين والفرائض والأدب، ينتج في فرعي الكتابة في ذلك الوقت وهما الشعر والنثر، وإن وظائفه الرسمية لتوقفنا على مكانته العلمية، فقد كان جالساً للتدريس بمسجد غرناطة الأعظم، كما تولى الخطابة به، ودرس بالمدرسة النصرية بغرناطة أيضاً، ويكفي للدلالة على مكانته العلمية والاجتماعية قول ابن الخطيب بأنه كان «مُعَظّماً عند الخاصة والعامة مقروناً اسمه بالتسويد»[40]، وقد كانت له استقلالية في التفكير خرج بها عن مشهور مذهب مالك[41]، وهذا هو شأن العلماء الذين يكون لهم من الاستقلالية والتأثير ما يجعلهم أساتذة زمانهم، وهو ما تحقق في أبي سعيد فرج بن قاسم بن لب، فقد ذكر التنبكتي أنه قل بالأندلس من أئمتها في وقته من لم يأخذ عنه، ومن أولئك الإمام الشاطبي، وأبو عبد الله الفخار، وابن بقي، وابن الخشاب، وأبو محمد بن جزي، وابن الخطيب، وابن زمرك، وأبو يحيى وأبو بكر ابنا عاصم، والمنتوري وغيرهم، ولذلك فهو شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين، كما

---

(37) السابق 101.

(38) الكتيبة الكامنة 239.

(39) انظر ترجمته كاملة عند ابن الخطيب، الإحاطة 4/ 253 ـ 255، وأحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج 357 ـ 359.

(40) الإحاطة 4/ 254.

(41) انظر أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية الدكتور عبد الحميد الهرامة، ص358.

قال تلميذه السراج[42]، وهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب كما يذكر مؤرخ الأندلس المقري[43].

وعلى الرغم من هذا النبوغ والبروز لابن لب في علوم شتى فإنه لم يكن يستند فيه على إرث عن أب، ولا مشابهة لجد؛ إذ إنّ أسرته لم يسبق أن نبغ فيها أحد قبله في العلم، فكان عصامياً مجتهداً، وكما قال ابن الخطيب «لم يستند إلى أبوة ترعى، ولا ناظر عن أصل الأصالة فرعاً، إنما هو اكتساب لا انتساب»[44].

أما آثاره العلمية فيغلب عليها الطابع الفقهي اللغوي، ومن أهم مؤلفاته في الصنف الثاني شرح تصنيف التسهيل، وشرح جمل الزجاجي[45]، والأول لا يوجد خبر عن وجوده، فيما أعلم، أما الثاني فموجود مخطوطاً، ولم يقم أحد، على حد علمي، بتحقيقه حتى الآن.

أما شاعرية ابن لب فعلى الرغم من سكوت المصادر عن الحديث عن وجود ديوان له من عدمه، فإن القدر القليل الذي رواه له ابن الخطيب[46] يدل على شاعرية قوية وباع كبير في نظم الشعر، وقد عَدَّ ابنُ الخطيبِ ابنَ لبٍّ في طبقة الخطباء والصوفية الصلحاء ونعته في ترجمته بالخطيب[47] مما يعني أن ابن لب كان مجيداً في فن النثر أيضاً.

---

(42) يحيى بن أحمد السراج، الفهرست، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط 2643 د339.

(43) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1408/ 1988، 5/ 513.

(44) الكتيبة الكامنة 67.

(45) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج 359.

(46) الإحاطة 4/ 254 ـ 255.

(47) الكتيبة الكامنة 67.

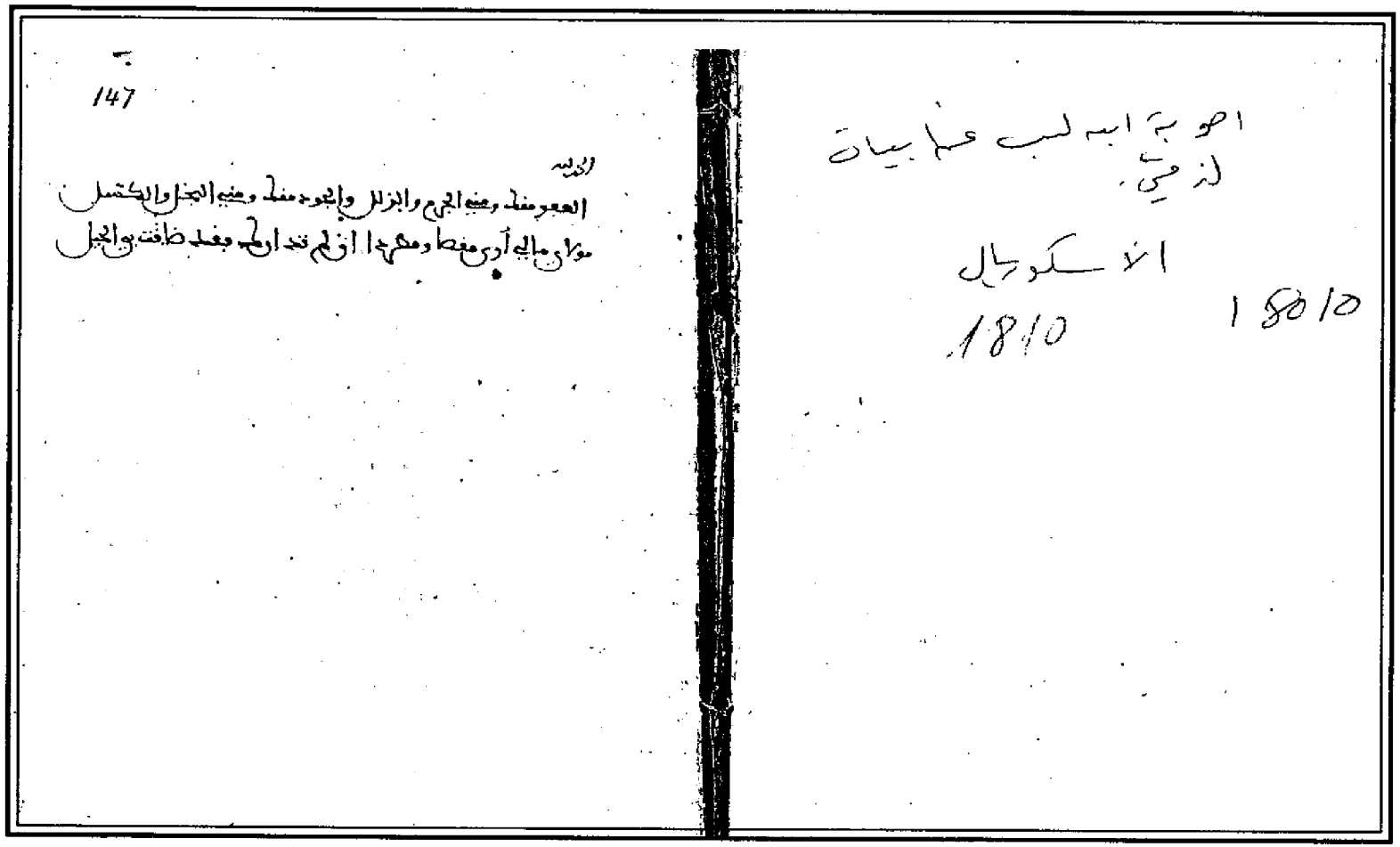

الصفحة 147 من المخطوط

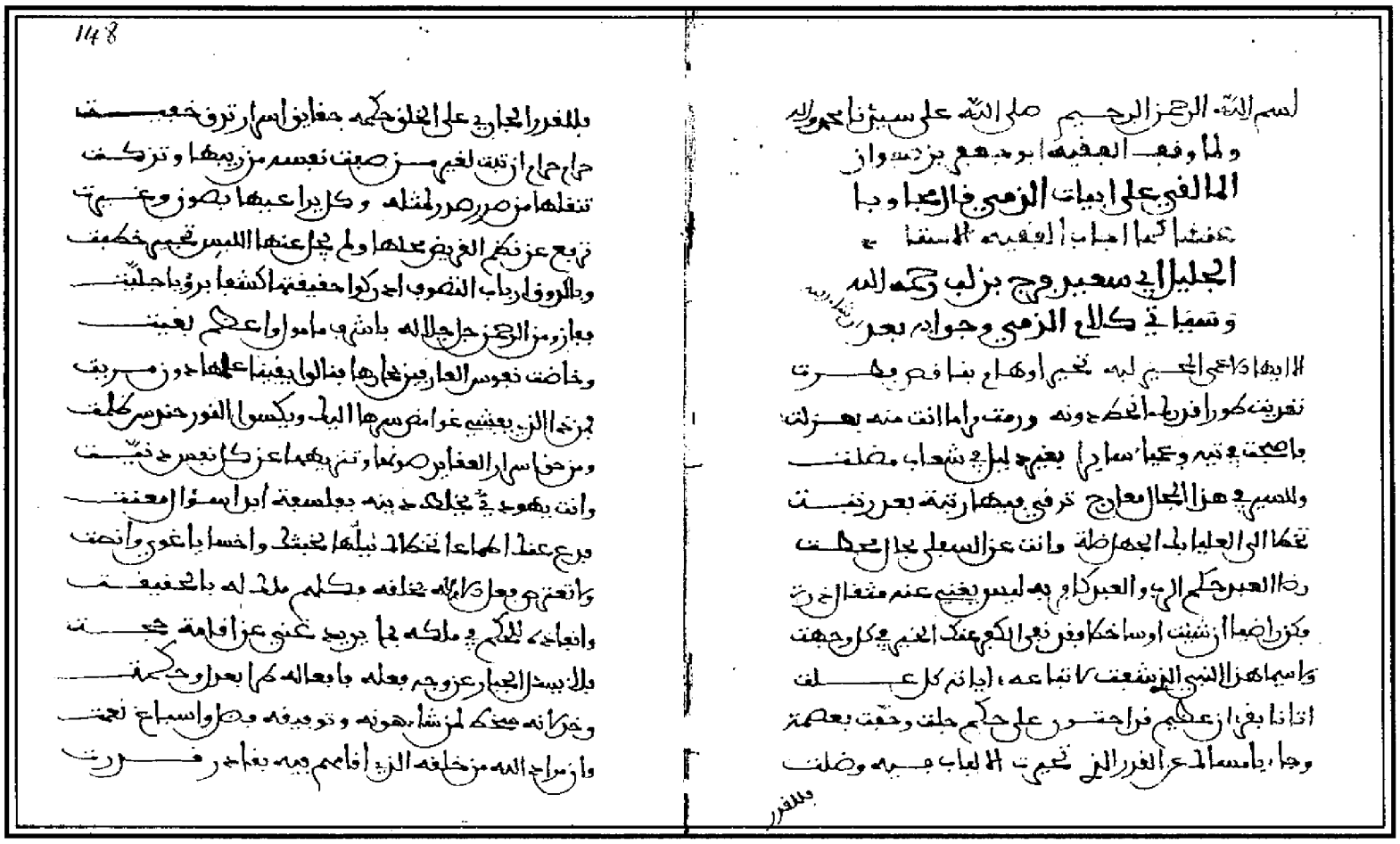

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

ولما وقف الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد

المالقي على أبيات الزمي في الإغراب

عرضها كما أجاب الفقيه الأستاذ

الجليل أبو سعيد فرج بن لب رحمه الله

وسمياتي كلام الزمي وجوابه بعد

أيها الداعي الحكيم لبه ... نحيي أوهاج بنا فصرت

نفرت كورا فرياطا خطه ... ورمت رأما أنت منه بعدت

باصحت فيه وحيا سارا ... يغيم ليل في شهاب مضلت

والمسيح في هذا المجال معارج ... ترقى بها رتبة بعد رتبت

تحكما الى العليا بك الجهاضلة ... وانت عن السعلى بجال عدلت

رضا العبر حكم الرب والعبد كاره ... به ليس يغني عنه متقال ذرة

فكن راضيا ان شئت او ساخطا فمن ... قضى الكره عنك الحتم في كل وجهت

واسباها هذا النبي الذي شفعت ... لاتباعه ، ايانه كل علت

انا نابغي ان عظيم فراجتر ... على حكم جلت وحقت بعصمة

وحاديا مسما لمعز الغرر الذي ... تحيرت الالباب فيه وضلت

للغرر

148

للغرر الجاري على الخلق حكمه ... جعلت اسرار الترقي خفيت

حرام حرام ان تنيف لغيم ... من صيغت نفسه من زيغها و تزكت

تنقلها من صر صر لمثله ... وكل براعيها بصوب وغيرت

تزيح عن نكم الغريض محلها ... ولم يحل عنها اللبس تحيي خطيت

وللروفار باب التصوف احدثوا ... حقيقتها اكشفها برؤيا جليت

بعاز من الرحمن جل جلاله ... بانشر ما موا واعلم بغيت

وخاضت نفوس العارفين بحارها ... فنالوا يقينا علمها دون مريت

بزمزم الذي يغشى غوامض سرها ... اليك ويكسوا النور حتى سرك لمعت

ومن حول اسرار العقايل صونها ... وتنزيهها عن كل نقص دنيت

وانت بهود في مجالك حينه ... بدلسعة ابراسنوا معتقت

برجع عند الهما عا تخالد ... ليلها تخبث واخسا باغوى وانصت

وانت هو بعد الله خلفه ... وكلم ملك له باخفيت

وانعاه للحكم في ملكه ... بما يريد تحني عز اقامة حجت

فلا يبدل الجبار عز وجهه ... بفعله بما بعاله كما بعدل وحكمة

وخرانه ضحك لمن شاء هونه ... وتوفيقه فضل واسباغ نعمت

وان سراج الله من خلقه الذي ... اقامهم فيه بغاير فرقت

الصفحة 148 من المخطوط

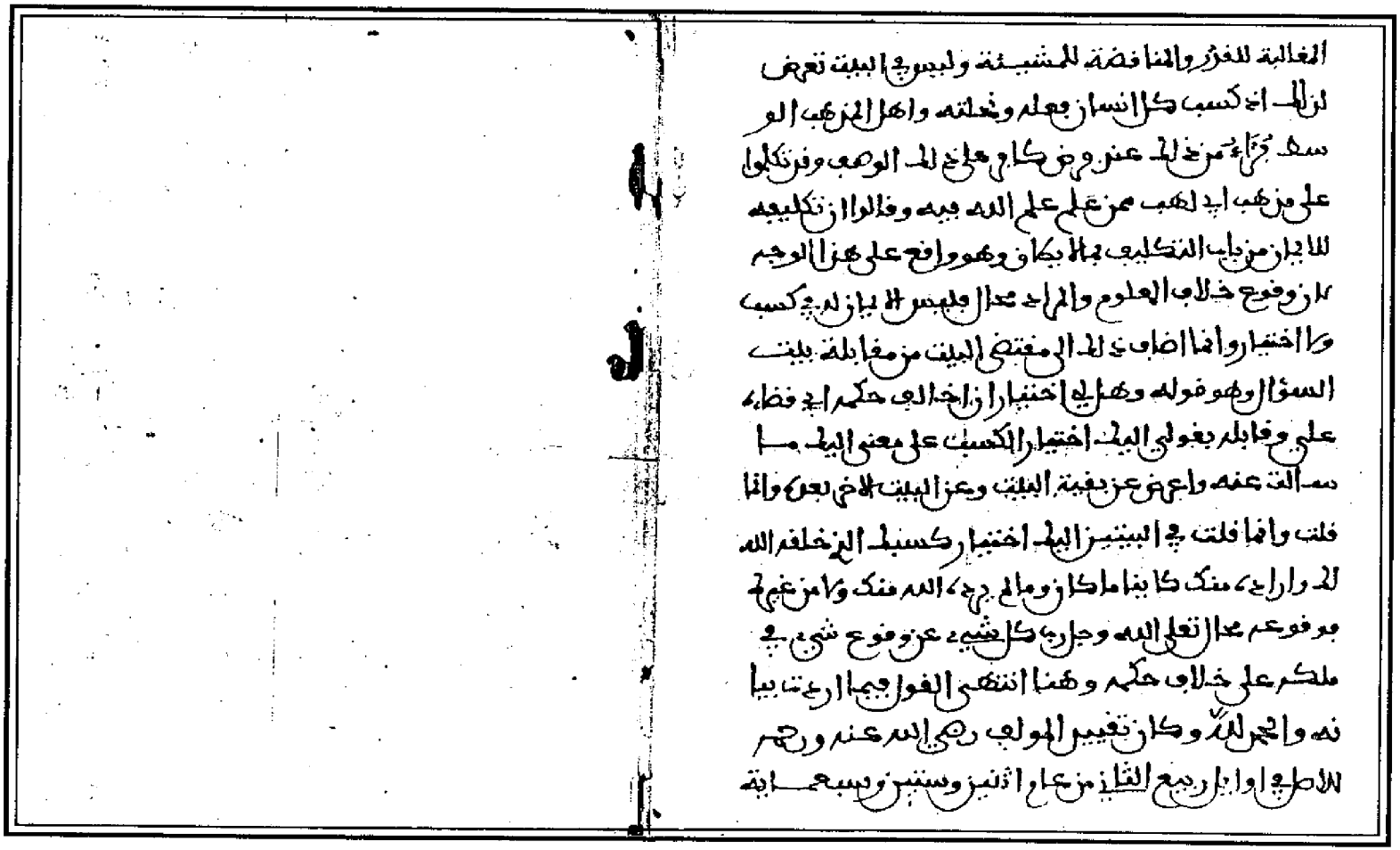

الصفحة 156 من المخطوط

المخطوط:

يقع مخطوط هذه النصوص ضمن مجموع يحمل الرقم 1810 بمكتبة دير الإسكوريال الذي يقع على مسافة خمسين كيلو متراً تقريباً من مدينة مدريد بإسبانيا، وتحتل النصوص فيه الورقات 147 ـ 156، وهو ذو ورق صغير الحجم 21 × 15 سم، تحمل كل صفحة فيه 16 سطراً، والصفحات التي تعنينا ذات خط أندلسي جميل، يخلو من آفات المخطوطات، غير أن الناسخ يبدو أنه لا علم له بأحكام الكتابة ولا يُلِمُّ بأصول اللغة، فهو يكتب حرف الروي التاء، تاء مفتوحة مهما كانت الكلمة التي وقعت فيها، كما أن له بعض الأخطاء النحوية[48]، إن جاز أن يفرق بين ما هو نحوي وما هو إملائي.

ونجد وجه الورقة الأولى (147) من الأوراق التي تحوي هذه النصوص خالياً من الكتابة، بينما يحوي ظهرها الحمدلة والبيتين:

الْعَفْوُ مِنْكَ وَمِنِّي الْجُرْمُ وَالزَّلَلُ وَالْجُودُ مِنْكَ وَمِنِّي الْبُخْلُ وَالْكَسَلُ

مَوْلاَيَ مَالِي أَرَى نَقْصًا وَمُطَّرَدًا إِنْ لَمْ تُدَارِكْ فَقَدْ ضَاقَتْ بِيَ الْحِيَلُ

ويبدو أن الناسخ كان قريب عهد بالمؤلف أبي سعيد فرج بن لب، فقد وضع تاريخ تقييد المؤلف للأصل الذي نقل عنه الناسخ، وهو أوائل ربيع الثاني من العام 762، ويعني ذلك أن تقييد هذه الأبيات وشروح بعضها قد تم قبل وفاة أبي جعفر بن صفوان بسنة تقريباً، فقد توفي ابن صفوان في العام 763[49].

كما يبدو من سياق الكلام أن النصوص مقتطعة من كلام سابق جاء له الناسخ ببسملة وحمدلة وتصلية، ولكن أنها جميعاً لم يَخْفَ مقتطعة من كلام سابق إذ إنها تبدأ بقوله: «ولما وقف الفقيه أبو جعفر بن صفوان المالقي على أبيات الذمِّي»[50] فأل الجنسية التي في الذمي لا بد أن يكون لها إشارة سابقة،

---

(48) فقد جاء في المخطوط «كما أجاب الفقيه الأستاذ الجليل أبي فرج سعيد. . . .» وكان عليه أن يقول أبو لأنها فاعل.

(49) الإحاطة 1/ 232.

(50) المخطوط 148/أ.

ومعهود معلوم للمخاطب، حتى يكون الكلام غير قلق في سياقه، ولن يتم ذلك إلا بأن يكون هذا الكلام إتماماً لكلام سابق، ثم عندما أراد أن يذكر أبيات الذمّي قال: «قال أحد الذمّيين مستفتياً أهل العلم»[51] وهو أسلوب يقتضي أن تذكر هذه العبارة أولاً، والله أعلم.

[النصوص]

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله

ولما وقف الفقيه أبو جعفر بن صفوان المالقي على أبيات الذمي، قال مجاوباً عنها، كما أجاب الفقيه الأستاذ الجليل أبي [كذا][52] سعيد فرج بن لب رحمه الله، وسيأتي كلام الذمي وجوابه بعد إن شاء الله:

أَلاَ أَيُّهَا الأَعْمَى الْمُحَيَّرُ لُبُّهُ ... تَحَيُّرَ أَوْهَامٍ بِنَاقِصِ فِطْرَةِ

تَعَدَّيْتَ طَوْرًا قَدْرُكَ انْحَطَّ دُونَهُ ... وَرُمْتَ مَرَامًا أَنْتَ مِنْهُ بِعُزْلَةِ

فَأَصْبَحْتَ فِي تِيهٍ وَعَمْيَاءَ سَائِرًا ... بِغَيْرِ دَلِيلٍ فِي شِعَابٍ مَضَلَّةِ

وَلِلسَّيْرِ فِي هَذَا الْمَجَالِ مَعَارِجٌ ... تُرُقِّيَ فِيهَا رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةِ

تَخَطَّى[53] إِلَى الْعُلْيَا بِكَ الْجَهْلُ ضَلَّةً ... وَأَنْتَ عَنِ السُّفْلَى بِحَالٍ مُحِطَّةِ

رِضَا الْعَبْدِ حُكْمَ الرَّبِّ وَالْعَبْدُ كَافِرٌ ... بِهِ لَيْسَ يُغْنِي عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةِ

فَكُنْ رَاضِيًا إِنْ شِئْتَ أَوْ سَاخِطًا فَقَدْ ... نَفَى الْكُفْرُ عَنْكَ الْخَيْرَ فِي كُلِّ وِجْهَةِ

وَلاَ سِيَمَا هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي شَفَتْ ... لأَتْبَاعِهِ آيَاتُهُ كُلَّ عِلَّةِ

أَتَانَا بِقُرْآنٍ عَظِيمٍ قَدِ احْتَوَى ... عَلَى حِكَمٍ جَلَّتْ وَحُفَّتْ بِعِصْمَةِ

وَجَاءَ بِإِمْسَاكٍ عَنِ الْقَدَرِ الَّذِي ... تَحَيَّرَتِ الأَلْبَابُ فِيهِ وَضَلَّتِ

---

(51) المخطوط 151/أ.

(52) السياق النحوي يقتضي أن تكون الكلمة بالواو ـ أبو ـ لأنها تابع لمرفوع.

(53) في المخطوط: تخطا.

فَلِلْقَدَرِ الْجَارِي عَلَى الْخَلْقِ حِكْمَةٌ ... حَقَائِقُ أَسْرَارٍ تَرِقُّ خَفِيَّةِ

حَرَامٌ حَرَامٌ أَنْ تُبَتَّ[54] لِغَيْرِ مَنْ ... صَفَتْ نَفْسُهُ مِنْ رِيبَةٍ وَتَزَكَّتِ

تَنَقَّلَهَا مِنْ صَدْرِ صَدْرٍ لِمِثْلِهِ ... وَكُلٌّ يُرَاعِيهَا بِصَوْنٍ وَغَيْرَةِ

تَرَفَّعَ عَنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ مَحَلُّهَا ... وَلَمْ يَجْلُ عَنْهَا اللَّبْسَ تَحْبِيرُ خُطْبَةِ

وَبِالذَّوْقِ أَرْبَابُ التَّصَوُّفِ أَدْرَكُوا ... حَقِيقَتَهَا كَشْفًا بِرُؤْيَا جَلِيَّةِ

فَفَازُوا مِنَ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلالُهُ ... بِأَشْرَفِ مَأْمُولٍ وَأَعْظَمِ بُغْيَةِ

وَخَاضَتْ نُفُوسُ الْعَارِفِينَ بِحَارَهَا ... فَنَالُوا يَقِينًا عِلْمَهَا دُونَ مِرْيَةِ

فَمَنْ ذَا الَّذِي يُفْشِي غَوَامِضَ سِرِّهَا ... إِلَيْكَ وَيَكْسُو النُّورَ حِنْدِسَ ظُلْمَةِ

وَمِنْ حَقِّ أَسْرَارِ الْعَقَائِدِ صَوْنُهَا ... وَتَنْزِيهُهَا عَنْ كُلِّ نَفْسٍ دَنِيَّةِ

وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ يُخَلِّطُ دِينَهُ ... بِفَلْسَفَةٍ أَبَدًا سُؤَالَ مُعَنِّتِ

فَدَعْ عَنْكَ أَطْمَاعًا تَخَطَّاكَ نَيْلُهَا ... لِخُبْثِكَ وَاخْسَأْ يَا غَوِيُّ وَأَنْصِتِ

وَلاَ تَعْتَرِضْ فِعْلَ الإِلَهِ بِخَلْقِهِ ... فَكُلُّهُمُ مُلْكٌ لَهُ بِالْحَقِيقَةِ

وَإِنْفَاذُهُ لِلْحُكْمِ فِي مُلْكِهِ بِمَا ... يُرِيدُ غَنِيٌّ عَنْ إِقَامَةِ حُجَّةِ

فَلا يُسْأَلُ الْجَبَّارُ عَنْ وَجْهِ فِعْلِهِ ... فَأَفْعَالُهُ طُرًّا بِعَدْلٍ وَحِكْمَةِ[55]

وَخُذْلاَنُهُ سُخْطٌ لِمَنْ شَاءَ هَوْنَهُ ... وَتَوْفِيقُهُ فَضْلٌ وَإِسْبَاغُ نِعْمَةِ

وَإِنَّ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ الَّذِي ... أَقَامَهُمُ فِيهِ بِقَادِرِ قُدْرَةِ

فَأَعْيَى عُقُولَ الْخَلْقِ إِدْرَاكُ مِثْلِهِ ... كَمَالاً وَإِتْقَانًا وَإِبْدَاعَ صَنْعَةِ

تَمَلَّكَ أَضْدَادًا أُقِيمَتْ لِحِكْمَةٍ ... وَسِرٌّ جَلِيٌّ لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

وَلاَ زَائِدٌ فِيهِ وَلاَ نَاقِصٌ وَلاَ ... مَحَلٌّ لِتَفْرِيطٍ وَلاَ سَهْوُ غَفْلَةِ

بَلِ الْكُلُّ بُرْهَانٌ عَلَى صُنْعِ صَانِعٍ ... حَكِيمٍ قَدِيرٍ لَيْسَ يَعْيَى بِخِلْقَةِ

---

(54) في المخطوط تبت بالتاء المثناة وأراه خطأ.

(55) طُراً أي جميعاً، قال سيبويه: مررت بهم طراً أي جميعاً، وهي على رأيه لا تستعمل إلا حالاً. (لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، مادة ط ر ر، المجلد 3 ص498).

وَإِنَّ مُحَالاً كَوْنُ مَا لَمْ يُرِدْهُ أَنْ يَكُـ ـونَ فَحَقِّقْ نَفْيَهُ عَنْ بَصِيرَةِ
وَكَمْ مِنْ سَعِيدٍ وَهْوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَمِنْ كَائِنٍ فِي الْبَطْنِ بَاءَ بِشِقْوَةِ
مَقَادِيرُ مَاحٍ لِلأُمُورِ وَمُثْبِتٍ لَهَا جَلَّ مَوْصُوفًا بِمَاحٍ وَمُثْبِتِ
وَنَصُّ حَدِيثِ الْقَبْضَتَيْنِ مُبَيِّنٌ لِمَا نَحْنُ فِيهِ دَافِعٌ كُلَّ شُبْهَةِ
فَقَبْضَةُ نَارٍ خُصِّصَتْ بِشَقَاوَةٍ وَتَخْتَصُّ بِالتَّنْعِيمِ قَبْضَةُ جَنَّةِ
وَمِنْ مُقْتَضَاهُ مَا تَقَرَّرَ فِيهِ مِنْ مُبَاشَرَةٍ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْخَبِيثَةِ
وَفِي لا أُبَالِي بَعْدَ ذِكْرِ كِلَيْهِمَا مُشِيرٌ إِلَى إِثْبَاتِ حُكْمِ الْمَشِيئَةِ
كَذَلِكَ تَخْيِيرُ الإِلَهِ بِقَوْلِهِ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ دُعَاءً لِرَحْمَةِ
وَفِي قَوْلِهِ فِيمَا يَلِي ذَاكَ بَعْدَهُ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ وَعِيدٌ بِنِعْمَةِ
فَهَذَا جَوَابٌ لاَئِقٌ بِمُخَلِّطٍ أَقَامَ اعْتِرَاضَاتٍ بِمَكْرٍ وَخُدْعَةِ
وَمَنْ رَسَخَتْ فِي دِينِهِ قَدَمٌ لَهُ وَطُهِّرَ مِنْ أَدْرَانِ نَفْسٍ رَدِيَّةِ
فَعِنْدِي لَهُ مَا يَسْتَقِلُّ بِبُرْءِ مَا عَرَاهُ وَيَحْفُوهُ بِأَنْفَسِ تُحْفَةِ
وَحَسْبِيَ رَبِّي فِي مَقَالِيَ كُلِّهِ فَمِنْهُ اهْتِدَائِي لِلصَّوَابِ وَعِصْمَتِي
وَمِنْ عِنْدِهِ أَرْجُو الَّذِي أَنَا آمِلٌ وَحَوْلِي لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ وَقُوَّةِ
وَقَدْ كَمُلَتْ فِي أَرْبَعِينَ وَسِتَّةٍ جَوَابُ مُرِيدٍ قَالَ يَشْكُو بِحَيْرَةِ
وَشَكْوَاهُ قَدْ نَمَّتْ عَلَيْهِ وَصَرَّحَتْ بِسُخْبُثِ طَوَاهُ فِي ضَمِيرٍ وَنِيَّةِ
أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

ولما وقف الفقيه الأستاذ أبو جعفر أحمد بن خاتمة على أبيات الذمي وجواب الأستاذ أبو[56] سعيد، قال مذيلاً لأبيات الأستاذ رحمه الله تعالى ورضي عنهما:

قَضَا الرَّبُّ كُفْرَ الْكَافِرِينَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَرْضَاهُ تَكْلِيفًا لَدَى كُلِّ مِلَّةِ
وَإِلاَّ فَقَدْ كَانَ الْعَلِيمُ بِأَنَّهُ يَكُونُ وَلَمْ يُجْبِرْ عَلَى فِعْلِ ذَرَّةِ

(56) هكذا بالمخطوط والإعراب يقتضي أن تكون بالياء ـ أبي ـ بالجر للإضافة.

وَلَوْ كَانَ يَرْضَاهُ لَمَا افْتَرَقَ الْوَرَى ... فَرِيقَيْنِ فِي الأُخْرَى لِنَارٍ وَجَنَّةِ

نَهَى خَلْقَهُ عَمَّا أَرَادَ وُقُوعَهُ ... وَإِنْفَاذُهُ وَالْمُلْكُ أَبْلَغُ حُجَّةِ

عَلَى أَنَّهُ فِي ذَاكَ لَيْسَ بِجَايِرٍ ... إِذِ الْمُلْكُ فِيهِ مُطْلَقٌ فِي الْبَرِيَّةِ

وَمَا صَحَّ مِنَّا الْجُورُ إِلاَّ لأَنَّنَا مَلَكْنَا ... وَلَكِنْ لَيْسَ مُلْكَ حَقِيقَةِ

فَأَفْعَالُنَا قِسْمَانِ جُورٌ وَطَاعَةٌ ... وَأَفْعَالُهُ مَا بَيْنَ عَدْلٍ وَمِنَّةِ

فَنَرْضَا قَضَاءَ الرَّبِّ حُكْمًا وَإِنَّمَا ... كَرَاهَتُنَا مَصْرُوفَةٌ لِلْخَطِيئَةِ

وَإِنْ كَانَ فِعْلاً وَاحِدًا فَبِنِسْبَةٍ إِلَيْـ ... ـكَ يُسَمَّى الذَّنْبُ لاَ لِلْمَشِيئَةِ

فَأَنْتَ مَحَلٌّ وَصْفُهُ قَائِمٌ بِهِ ... قَضَى كَسْبَهُ فِيهِ بِنَعْتٍ وَنِسْبَةِ

فَنَكْرَهُهُ مِنْ حَيْثُ ذَلِكَ لاَ لِمَا ... غَدَا فِعْلُ رَبٍّ عَادِلٍ فِي الْقَضِيَّةِ

هُمَا جَنَّتَانِ امْتَازَ حُكْمُهُمَا سِوَى ... لَدَى بَصَرٍ لَمْ يَسْتَتِرْ عَنْ بَصِيرَةِ

فَلاَ تَرْضَ فِعْلاً قَدْ نَهَى عَنْهُ شَرْعُهُ ... وَسَلِّمْ لِتَدْبِيرٍ وَحُكْمٍ مَشِيئَةِ

دَعَا الْكُلَّ تَكْلِيفًا وَوَفَّقَ بَعْضَهُمْ ... فَخُصَّ بِتَوْفِيقٍ وَعُمَّ بِدَعْوَةِ

وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَفِّقَ مَنْ قَضَا ... لَهُ أَزَلاً فِي عِلْمِهِ بِضَلاَلَةِ

وَكَيْفَ وَلا حَجْرٌ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا ... أَثَارَ قَبِيحًا زَايِغٌ عَنْ شَرِيعَةِ

فَتَعْصِي إِذَا لَمْ تَنْتَهِجْ طَرْفَ شَرْعِهِ ... وَإِنْ كُنْتَ تَمْشِي فِي طَرِيقِ الْمَشِيئَةِ

وَلا عُذْرَ فِي دَعْوَاكَ خَيْرًا فَمَنْ يَقُلْ ... فَعَلْتُ فَمُخْتَارٌ لِحُكْمِ الْبَدِيهَةِ

إِلَيْكَ اخْتِيَارُ الْكَسْبِ وَالرَّبُّ خَالِقٌ ... مُرِيدٌ بِتَدْبِيرٍ لَهُ فِي الْخَلِيقَةِ

وَتَفْرِيقِ مَا بَيْنَ اضْطِرَارٍ مَجَرَّدٍ ... وَبَيْنَ اخْتِيَارٍ مُدْرِكٍ بِالضَّرُورَةِ

وَمَا لَمْ يُرِدْهُ اللَّهُ لَيْسَ بِكَايِنٍ ... تَعَالَى وَجَلَّ اللَّهُ رَبُّ الْبَرِيَّةِ

وَلَوْ بَانَ فِي ذَا الْخَلْقِ غَيْرُ مُرَادِهِ ... وَتَمَّ لِعَبْدٍ دُونَهُ لَمْحُ خَطْرَةِ

وَمَا عِلَّةُ اسْتِغْنَالِهِمْ فَوْتُ فَايِتٍ ... سِوَى مَا بِهِمْ مِنْ حَاجَةٍ وَضَرُورَةِ

وَلَيْسَتْ بِأَيْدِيهِمْ خَزَايِنُ رِزْقِهِمْ ... فَهُمْ تَحْتَ خَوْفٍ مِنْ نَفَادٍ وَقِلَّةِ

وَخَالِقُهُمْ قَدْ شَاءَهُمْ لاَ لِحَاجَةٍ ... إِلَيْهِمْ تَعَالَى عَنْ هَوًى فِي الْمَشِيئَةِ

فَيُذْهِبُ شَيْئًا ثُمَّ يَأْتِي بِمِثْلِهِ ... وَمَا أَمْرُهُ إِلاَّ كَلَمْحَةِ نَظْرَةِ

غَنِيٌّ عَنِ الأَسْبَابِ قَبْلَ وُجُودِهَا ... كَذَاكَ غِنَاهُ بَعْدَ خَلْقِ الخَلِيقَةِ

خَزَائِنُهُ مَلأَى بِأَرْزَاقِ خَلْقِهِ ... خَزَايِنُ مُلْكٍ أَوْ خَزَايِنُ قُدْرَةِ

عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ بَعْدَمَا ... أَتَى الشَّرْعُ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ

فَقَدْ يُحْمَدُ الْفِعْلُ انْتِمَاءً لِشِرْعَةٍ ... وَيُقْضَى لِمَا فِي غَيْرِهَا بِمَذَمَّةِ

كَقَتْلِ سُلَيْمَانَ الْجِيَادَ تَقَرُّبًا ... وَلَيْسَ لَهُ فِي شَرْعِنَا وَجْهُ قُرْبَةِ

فَعُوِّضَ مِنْهَا الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ... غُدُوًّا لَهَا شَهْرٌ وَشَهْرٌ بِرَوْحَةِ

وَكَمْ حِكْمَةٍ لِلّهِ فِي صُنْعِهِ بَدَتْ ... وَظَنَّتْ عُقُولٌ أَنَّهَا دُونَ حِكْمَةِ

تَأَمَّلْ هُنَا مَا كَانَ مِن خِضْرٍ وَمَا ... تَبَدَّتْ لِمُوسَى مِنْ مَعَانٍ خَفِيَّةِ

فَمِنْ حِكَمٍ لاَحَتْ لِبَعْضِ بَصَائِرٍ ... وَمِنْ حِكَمٍ تَاهَتْ بِكُلِّ بَصِيرَةِ

وَقَدْ جَاءَ هَذَا كُلُّهُ عَنْ نَبِيِّنَا ... مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى خَيْرِ مِلَّةِ

هُوَ الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ إِلَى النَّاسِ نِعْمَةً ... فَأَتْبَاعُهُ فِي رَحْمَةٍ وَبِنِعْمَةِ

وَمِلَّتُهُ أَكْرِمْ بِهَا خَيْرُ مِلَّةٍ ... وَأُمَّتُهُ أَكْرِمْ بِهَا خَيْرُ أُمَّةِ

فَصَلَّى عَلَيْهِ اللّهُ خَيْرَ صَلاَتِهِ ... وَحَيَّاهُ عَنَّا اللّهُ خَيْرَ تَحِيَّةِ

وقال أحد الذميين[57] مستفتياً أهل العلم رضي الله عنهم[58]:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

إِذَا مَا قَضَا رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ ... وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي[59]

---

(57) ذكره هنا بقوله أحد الذميين، كأن الكلام يرد عليه لأول مرة، في حين أنه كان قد ذكره أول مرة وبشكل يفهم منه أنه معروف؛ إذ ذكر سابقاً في المرة الأولى والثانية «أبيات الذمي» بالتعريف للذمي، وذكره هنا منكراً، فكأن هذا الذكر هو الأول، جاء متأخراً، وذلك الذكر هو المتأخر جاء أولاً.

(58) ابتداء من أبيات الذمي سيروي أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي النص برواية مختلفة حتى الاستشهاد بالآية الكريمة ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ بمعنى أن الشاطبي يترك رواية تعليق ابن لب وشرحه لبيته السابع، انظر الإفادات والإنشادات ص 172 ـ 175.

(59) في المخطوط وردت القافية في هذا البيت والأبيات الموالية بتاء التأنيث أي بالتاء المربوطة، وأعتقد أن الصواب أن الكلمة مضافة إلى ياء المتكلم.

قَضَا بِضَلالِي[60] ثُمَّ قَالَ: ارْضَ بِالْقَضَا فَهَلْ[61] أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي فِيهِ شِقوَتِي
دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ دُونِي فَهَلْ إِلَى دُخُولِي سَبِيلٌ، بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي
إِذَا شَاءَ رَبِّي الْكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً فَهَلْ أَنَا عَاصٍ[62] بِاتِّبَاعِ الْمَشِيئَةِ
وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ فَبِاللّهِ فَاشْفُوا بِالْبَرَاهِينِ عِلَّتِي

فلما وقف الأستاذ الجليل الكبير المشاور أبو سعيد فرج بن لب ـ رضي الله عنه ـ عليها، قال مجاوباً عنها[63]:

قَضَا[64] الرَّبُّ كُفْرَ الْكَافِرِينَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَرْضَهُ[65] تَكْلِيفًا لَدَى كُلِّ مِلَّةِ
نَهَى[66] خَلْقَهُ عَمَّا أَرَادَ وُقُوعَهُ وَإِنْفَاذَهُ وَالْمُلْكُ أَبْلَغُ حُجَّةِ
فَنَرْضَى قَضَاءَ الرَّبِّ حُكْمًا وَإِنَّمَا كَرَاهَتُنَا مَصْرُوفَةٌ لِلْخَطِيئَةِ
فَلاَ تَرْضَ[67] فِعْلاً قَدْ نَهَا عَنْهُ شَرْعُهُ وَسَلِّمْ لِتَدْبِيرٍ وَحُكْمٍ مَشِيئَةِ
دَعَا الْكُلَّ تَكْلِيفًا وَوَفَّقَ بَعْضَهُمْ فَخُصَّ بِتَوْفِيقٍ وَعُمَّ بِدَعْوَةِ
فَتَعْصِي[68] إِذَا لَمْ تَنْتَهِجْ طُرُقَ شَرْعِهِ وَإِنْ كُنْتَ تَمْشِي فِي طَرِيقِ الْمَشِيئَةِ
إِلَيْكَ اخْتِيَارُ الْكَسْبِ وَالرَّبُّ خَالِقٌ مُرِيدٌ بِتَدْبِيرٍ لَهُ فِي الْخَلِيقَةِ
وَمَا لَمْ يُرِدْهُ اللّهُ لَيْسَ بِكَايِنٍ تَعَالَى وَجَلَّ اللهُ رَبُّ الْبَرِيئَةِ
فَهَذَا جَوَابٌ عَنْ مَسَايِلَ سَايِلٍ جَهُولٍ يُنَادِي وَهْوَ أَعْمَى الْبَصِيرَةِ
«أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ»

---

(60) في الإفادات بضلال.
(61) في الإفادات وهل.
(62) في الإفادات راض.
(63) في الإفادات وقع التقديم لأبيات ابن لب بقول الشاطبي: وأجاب الأستاذ أجله الله بعد الحمد والصلاة على النبي بما نصه.
(64) في الإفادات قضى.
(65) في الإفادات ليرضاه.
(66) في المخطوط نها.
(67) في المخطوط وردت الكلمة بالألف، وهي ألف علة في فعل مضارع تحذف للجزم.
(68) في المخطوط بالألف المقصورة، ولا وجه له في رأيي.

قال الأستاذ أبو سعيد: ثم قلت فيما كنت قيدت[69]: إن البيت الأول من أبيات الجواب مأخوذ من قوله تعالى[70]: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[71] إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[72] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[73] مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[74].

والبيت الثاني مأخوذ أيضاً من قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعني بالحجة البالغة حجة الملك كما وقع في حديث مسلم[75] حين سأل عمرانُ بنُ حصين[76] أبا الأسود الدؤلي[77] عما قضا على الكافر من كفره[78]، قال له: أفلا يكون ظلماً؟ قال أبو الأسود: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً ثم قلت[79]: كل شيء خَلْقُ الله تعالى ومُلْكُ يده ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا

---

(69) في الإفادات وقع بدل قوله قال الأستاذ إلى هنا قوله: [ثم وقع بعد ذلك ما نصه: هذه الأبيات المكتبة تضمنت جواب الأبيات الستة المكتوبة فوق هذا نظم هذه كاتب هذا فرج بن لب، لطف الله تعالى به وغفر له].

(70) في الإفادات لم يذكر الآية الأولى.

(71) سورة الأنعام، الآية: 149.

(72) سورة الأنعام، الآية: 107.

(73) سورة الأنعام، الآية: 112.

(74) سورة الزمر، الآية: 7.

(75) انظر الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مجلد 8 ص198 ـ 199، وخرَّج الحديث أيضاً أبو داود في سننه، انظر سنن أبي داود، دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 2/ 640.

(76) في الإفادات ابن الحصين وهو أبو نجيد عمران بن حصين، الخزاعي الأزدي البصري، انظر: التعديل والتجريح لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، دراسة وتحقيق أحمد لبزار، وزارة الأوقاف، المغرب 1411/ 1991، 3/ 1137.

(77) في الإفادات لم ترد الدؤلي، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندب بن يمر بن حنش بن حنش بن عدي بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر الديلي البصري، فقيه تابعي مشهور بأنه واضع علم النحو، انظر التعديل والتجريح لأبي الوليد الباجي، 2/ 652، الأعلام لخير الدين الزركلي، ط10، دار العلم للملايين، بيروت 192، 3/ 236 ـ 237.

(78) في الإفادات على الكافرين من كفرهم.

(79) في الإفادات لم ترد جملة الإخبار عن الفزع.

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[80] فقال له عمران: أحسنت إنما أردت: أحزر عقلك[81]، ثم حدثه حديثاً عن رسول الله ﷺ، الحديث إلى آخره.

والبيت الثالث والرابع مأخوذ معناهما من قوله تعالى: [152/أ] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[82] مع قوله[83]: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[84].

والبيت الخامس مأخوذ من قوله تعالى[85]: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[86] مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[87] فعمَّ بالدّعاء إلى الجنّة وخص بالهداية إلى طريقه[88].

والبيت السادس[89] مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ مع قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾[90] و﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[91].

والبيت السابع مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[92] و﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[93].

والبيت الثامن مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[94]

---

(80) سورة الأنبياء، الآية: 23.

(81) في صحيح مسلم لأحزر، والحزْر التقدير والخرْص (الصحاح للجوهري، ح ز ر، 2/ 629).

(82) سورة المائدة، الآية: 1.

(83) في الإفادات لا توجد عبارة «مع قوله».

(84) سورة الحجرات، الآية: 7.

(85) في الإفادات لم يذكر الآية الأولى.

(86) سورة النور، الآية: 63.

(87) سورة يونس، الآية: 25.

(88) في الإفادات لا توجد عبارة إلى طريقه.

(89) في الإفادات: والسادس.

(90) سورة الأنعام، الآية: 39.

(91) سورة الأعراف، الآية: 186، وقد أكمل الشاطبي بقية الآية: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

(92) سورة الصافات، الآية: 96.

(93) سورة الزمر، الآية: 62، ولم يورد الشاطبي الآية الثانية.

(94) سورة الإنسان، الآية: 30.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[95] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[96] الآية.

انتهى ما كان تقيَّد إذ ذاك والحمد لله[97].

قال الأستاذ أبو سعيد رضي الله عنه: ثم رأيت أن أبين معنى البيت السابع من أبيات الجواب وهو قولي:

إليكَ اختيارُ الكسْبِ والربُّ خَالِقٌ مُرِيدٌ بِتَدْبِيرٍ لـه فـي الـخـلـيـقـةِ

[152/ب] وحملني على ذلك أني وقعت على كلام فيه لبعض المجيبين عن الأبيات الذميّة يقتضي تنزيل البيت على غير المعنى المقصود منه، وذلك أنه بعدما ذكر البيت قال ما نصه: «هذا القول لا يحتاج إليه فيه هذا الجواب؛ لأن فرض كافر بالله قد قضا الله كفره أيام حياته وموته على الكفر لا ينبغي أن يقال: إن له اختياراً في كسب الإيمان وغيره؛ فإن ذلك مغالبة قدر الله تعالى ومناقضة أحكام مشيئته، وكيف يصح في فكر عاقل سالم الفطرة، صحيح التصور، جعل الاختيار في كسب الإيمان وغيره لمن قضى الله كفره أيام حياته، وطبع على قلبه، وطرده عن رحمته، وإنه تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾[98].

وغاية هذا المجيب، إذا نوقش الحساب في جوابه، وطولب بالحجة، عليه أن يقول: «هذا قول أهل العلم الذين يَحِلُّون وسطاً بين مذهب القدرية والجبرية»[99]، ثم جاءه بعد هذا بكلام معناه أن ما أثبته العقول السليمة والفطن الصحيحة لا يعارض ويعاند بقول من لم تثبت عصمته، ويعتمد على رواية ونقل وتقليد محض بغير دليل، انتهى.

---

(95) سورة النحل، الآية: 37.

(96) سورة القصص، الآية: 56.

(97) في الإفادات وردت فقط العبارة: «والحمد لله» وانتهى النص عندها.

(98) سورة الأعراف، الآية: 178.

(99) سورة هود، الآية: 34.

فأقول: أولاً إن البيت المذكور [153/أ] جواب لقول الذمي
«وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ»

ومعنى هذا الجواب أن كسب العبد لما يكتسبه من خير أو شر يتعلق به اختياره وقت صدوره منه، مع العلم بأن الرب سبحانه، أراد وقوع ذلك الفعل مقروناً بتلك الإرادة التي للعبد، وخلق سبحانه الإرادة والفعل فعاقبه بقدرته على وفق إرادته، وهذا معنى قولي في البيت «والرب خالق مريد» وتلك الإرادة التي خلق الله تعالى للعبد مع قدرته المخلوقة لها أيضاً هي مناط التكليف ومورد الأمر والنهي ووعد الثواب ووعيد العقاب، ويكون ذلك كله خلقاً للرب تعالى، ومراداته تنفي مغالبة القدر، ومناقضة، أحكام المشيئة الأزلية؛ إذ لا يدخل في الوجود إلا ما خلق الله تعالى على وفق ما أراد؛ فكيف يرد على اختيار العبد لكسبه الذي يفعله التزام مغالبة أو مناقضة مع أنه مراد الله منه وخلقه فيه على هذا التقدير؟ وإنما يلزم ذلك للقدرية القائلين باستقلال العبد بإرادته وخلقه لفعله دون أن يضاف ذلك إلى ربه، بل قد يكون عندهم على خلاف إرادته؛ لأن من قولهم إن الله لا يريد الضلال [153/ب] والمعاصي مع وقوع ذلك!، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون خالقاً لشيء إلا هو، وقد تمم المعنى المقصود من هذا البيت السابع ما ضمنته من المعنى في البيت الثامن وهو قولي:

وَمَا لَمْ يُرِدْهُ اللَّهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ تَعَالَى وَجَلَّ اللَّهُ رَبُّ الْبَرِيئَةِ

وقد صرح بهذا المعنى كله على كماله قوله تعالى، فيما ذكره عن نبيه نوح عليه السلام مخاطباً لقومه الكفار: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[100] الآية، لأنه خلقه فيه وأثبت لله تعالى إرادة ذلك به بقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ وأسندَ إِلَى الْعَبْدِ اختياراً وهو الإرادة بقوله: ﴿إِنْ أَرَدتُّ﴾ وجعل إرادة العبد غير نافذة إذ عارضتها إرادة البارئ تعالى بقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ وليتأمل قوله تعالى بعد هذا: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾[101] فإنه مشير إلى

(100) سورة هود، الآية: 34.

(101) سورة هود، الآية: 34.

البرهان: أي كيف لا يكون الأمر كذلك وهو الرب، ونحن العبيد ثم خوَّفَهُم وعيد الله تعالى على كفرهم بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[102] فلم يخرج[103] البيتان المذكوران عن هذه الآية إلى غيرها ولا [154/أ] عدلاً عن طريقها، وفي القرآن من هذا المعنى كثير، ولا يستقيم أن يقال في أبيات الجواب مع الإشارة إلى مواضع معانيها من القرآن أن ذلك استشهاد بالقرآن على كافر به، غير مسلم له، وهو الذمي ناظم الأبيات، لأني إنما قصرت الدفع في وجه مقاصده، حيث قصد إظهار تناقض وتضاد في عقيدة أهل الإسلام، فأظهرت في الجواب اندفاع التناقض واستقامة طريقتهم على وجه صحيح في نظر العقل، وأشرت إلى مواضع استثارة ذلك من القرآن؛ لأنه تعالى نبه على وجوه الأنظار العقلية كدليل التمانع في إثبات الوحدانية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[104] والله تعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[105] ولولا الإطالة هنا لبينت المقاصد المنظومة في تلك الأبيات كلها بيتاً بيتاً، وقولي في بقية البيت:

بِـتَـدْبِـيـرٍ لَـهُ فِـي الْـخَـلِـيـقَـةِ

فيه وجهان: أحدهما أنه منبه على تدبير الله لكسب العبد في الحال بموافقة العاقبة والمثال، قال الله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[106] وقال في الفريق الآخر: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[107] وفي الحديث: (اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له)[108].

والوجه الثاني أنه إشارة إلى أن [154/ب] الله تعالى دبر الفعل الكسبي على محاذاة[109] ما خلق للعبد المكتسب من إرادته، وعلى مناسبة قدرته، وإلا فيقال: إذ كان كسب العبد خلقاً للرب كما تقرر، فهَلاّ قفز الإنسان في البحر

---

(102) سورة هود، الآية: 34.

(103) في المخطوط تخرج وأراه خطأ الناسخ.

(104) سورة الأنبياء، الآية: 22.

(105) سورة الأنعام، الآية: 38.

(106) سورة الليل، الآية: 7.

(107) سورة الليل، الآية: 10.

(108) صحيح البخاري دار الكتب العلمية بيروت، الحديث 4949، 6/ 398.

(109) في المخطوط بالتاء المفتوحة؛ محاذات.

مثلاً أو طار في الهوى حتى يصير ذلك أمراً معتاداً له؟ لأن قدرة الله تمنع ذلك كله، فيقال: ربط الكسب بمحاذاة قدرة العبد المخلوقة القاصرة يمنع ذلك، فإن خرج عن المحاذاة يوماً كان خارقاً للعادة غير كسبي، ولأجل هذه المحاذاة يتباين الناس في مقادير أفعالهم من الفقر وغيره بتباين قدرهم، لأنه تعالى خلق القُدَر متفاوتة، فكل يكتسب على قدر قدرته ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[110] وأقول بعد هذا إن إنكار إضافة الاختيار إلى العبد في أفعاله حجر للضرورة ومخالفة للشريعة، أما الضرورة فإن الإنسان يحس من نفسه الإرادات والمقاصد والنيات، ويفرق بين حاليه عامداً أو ساهياً، وطايعاً أو مغلوباً، وإنما الفرق راجع إلى مقارنة الإرادة أو عدمها، وما صح من التكليف بورود الأمر والنهي إلا بسبب ما خلق الله للعبد من الإرادة والقدرة، وحيث سلبه ذلك لم يكلفه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[111] والقول [155/أ] بالجبر المحض بمعزل عما أثبتته الشريعة من إرادات العباد وقدرهم، يقول تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[112] ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[113] والمشيئة هي الإرادة، ويقول تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[114] والاستطاعة هي القدرة[115]، ذكر أبو داود في سننه عن ابن شهاب قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا خطب: (كل ما هو آت قريب، لا بعد لما هو آتٍ، لا يعجل الله بعجلة أحد ولا يخاف لأمر الناس، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الناس أمراً ويريد الله أمراً، وما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مبعد لما قَرَّبَ الله، ولا مقرب لما بَعَّدَ الله، لا يكون شيء إلا بإذن الله)[116]، انتهى.

---

(110) سورة الإسراء، الآية: 84.

(111) سورة البقرة، الآية: 286.

(112) سورة التكوير، الآية: 28.

(113) سورة الإنسان، الآيتان: 29 و30.

(114) سورة التغابن، الآية: 16.

(115) انظر تفسير السمرقندي (نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث) دار الفكر، بيروت، 1416/ 1996، ج3، ص458.

(116) لم أجد الحديث في سنن أبي داود دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية، ودار الجنان، بيروت، 1409/ 1988.

ثم يقال في مذهب أهل السنة إنه جبر باعتباره أن ما عند العبد من إرادة واستطاعة وكسب فهو خلق للرب، فقد آل بهذا الاعتبار إلى الجبر، لكن مع مراعاة[117] الفضل في الثواب والعدل في العقاب لما له تعالى من حجة الملك على الرقاب ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[118] وبهذا الاعتبار جاء قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[119] الإله الخالق والآمر [155/ب] وعليه تنزلت الكلمة التي هي كنز من كنوز الجنة كما ذكر في الحديث وهي «لا حول ولا قوة إلا بالله»[120] أي لا تَحَوُّلَ عن معصية الله ولا قوة على طاعة الله إلا بالله، وحقيقة المعنى الذي تؤديه الكلمة: لا تَحَوُّلَ لأحدٍ عن شيء، ولا قوة على شيء إلا بالله، فانتظمت الكلمة للمعاصي والطاعات، كما انتظمت غيرها من سائر المفعولات والمتروكات، ثم انظر كيف جعل المتكلم على البيت الخطاب بقولي: «إليك» اختيار الكسب مقصوداً به مثل الكافر الناظم لأبيات السؤال، وإنما قصدنا به خطاب مُكَلَّف من كان، وكيف جعل من مقتضى البيت أن لذلك الكافر المطبوع على قلبه اختياراً في كسب الإيمان، مع أن الإيمان في البيت غير مذكور، وإنما ذكر فيه الكسب وكسب ذلك الكافر إنما هو كفره، وقد قارنه اختياره فاستمر البيت على ذلك في حقه كما استمر في حق المؤمن على كسبه لإيمانه، وكيف أضاف إلى مقتضى البيت وإلى أهل المذهب الوسط، وهم أهل السنة أن كسب الإيمان يصح أن يختاره الكافر الموصوف، وأن يصدر عنه، مع فرض أن الله تعالى لم يرده منه فألزم على ذلك المغالبة للقدر والمغالبة للمشيئة، وليس في البيت تعرض لذاك، إذ كسب كل إنسان فعله ونحلته، وأهل المذهب الوسط براء من ذلك عند فرض كافر على ذلك الوصف، وقد تكلموا على مذهب أبي لهب ممن عَلِمَ علْمَ الله فيه، وقالوا إن تكليفه للإيمان من باب التكليف بما لا يطاق، وهو واقع على هذا الوجه، لأن وقوع خلاف المعلوم

---

(117) في المخطوط مراعات.

(118) سورة الأنعام، الآية: 149.

(119) سورة آل عمران، الآية: 154.

(120) صحيح البخاري دار الكتب العلمية بيروت، الحديث 6409، 7/ 217.

والمراد محال، فليس الإيمان له في كسب ولا اختيار، وإنما أضاف ذلك إلى مقتضى البيت من مقابلة بيت السؤال، وهو قوله: «وهل لي اختيار أن أخالف حكمه» أي قضاءه عليّ، وقابله بقولي: «إليك اختيار الكسب» على معنى إليك ما سألت عنه، وأعرض عن بقية البيت وعن البيت الآخر بعده، وإنما قلت في البيتين «إليك اختيار كسبك الذي خلقه الله لك وأراده منك كائناً ما كان، وما لم يرده الله منك ولا من غيرك فوقوعه محال، تعالى الله وجلَّ رب كلِّ شيء عن وقوع شيء في ملكه على خلاف حُكْمِهِ[121]، وهنا انتهى القول فيما أردت بيانه، والحمد لله، وكان تقييد المؤلف رضي الله عنه ورحمه للأصل في أوائل ربيع الآخر من عام اثنين وستين وسبعمائة.

(121) ناقش ابن حزم آراء أهل الاعتزال في معنى مشيئة الله وإرادته ورضاه وقبوله في فصل بعنوان «هل شاء الله عزَّ وجلَّ كون الكفر والفسق» انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة خياط، بيروت 3/ 142 ـ 164.